هارولد لاسكى: تأملات فى ثورة العصر

Reflection son the Revolution of our Time

قدم لنا الفكر السياسى الإنجليزى فريقين من الفلاسفة السياسيين، فريق تفرغ للبحث والتدريس والكتابة مثل سير أرنست بيكر وبروفسور ه . تونى ، وفئة ثانية جمعت بين البحث الأكاديمى والممارسة العملية للسياسة مثل جراهام دالاس وجون ستراشى. ومن بين أعلام الفريق الأخير هارولد لاسكى. فقد ظل الأستاذ لاسكى يقوم بالتدريس فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن وغيرها قرابة ثلاثين عاما، منذ سنة ١٩٢٠ حتى وفاته سنة ١٩٥٠ ، كما ظل فترة طويلة عضوا فى جماعة « الفابيين » ثم عضوا فى اللجنة التنفيذية لحزب العمال ، وكان رئيسا لها عند ما تولى حزب العمال الحكم فى سنة ١٩٤٥ حتى إن الكثيرين كانوا يعتقدون أنه الزعيم الحقيق للحزب ، وأصدر عشرات الكتب والمقالات والنشرات دفاعاً عن مبادئ الحزب ودعوة له . فلاسكى مزيج فريد من الفيلسوف السياسى والأستاذ والداعية وعضو الحزب يجمع بينهما جميعا فى نشاط لم يفتر حتى مات .

ولعل كتبه الثلاثة « قواعد السياسة » سنة ١٩٢٥ و « الديموقراطية فى محنة » سنة ١٩٣٣ و « تأملات فى ثورة العصر » سنة ١٩٤٣ هى أهم ما كتبه ، إذ أن كلا منها يمثل بداية مرحلة من مراحل تطوره الفكرى . وذلك أن لاسكى كان فى الفترة الأولى من حياته الأكاديمية يؤمن بالمبادئ الفابية ودعوتها إلى التغيير التدريجى « gradualism » ويبدو ذلك بوضوح فى كتابه « قواعد السياسة » المشار إليه ، ثم تحول عنها إلى اليسارية المتطرفة حوالى سنة ١٩٣٠ وكان أول مؤلف كبير له ظهر فيه هذا التحول هو كتابه الثانى «الديموقراطية فى محنة» الذى بدأ يدافع فيه عما أسماه

التجربة الاشتراكية فى روسيا ، ويشيد بالنظرية الماركسية ذاهباً إلى أنها فى مجموعها خير محاولة للإصلاح الجذرى الذى يتطلبه العصر ، ولو أنه لم يؤيدها على طول الخط فقد وجه سهام نقده إلى نقطة أساسية فى النظرية وهى ما تذهب إليـــه الماركسية من ضرورة العنف فى مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ، وهو يقول فى ذلك إنه لا مكان للأمن والطمأنينة والحرية فى ظل أى نظام يتطلب من الناس إيماناً به إلى حد اعتباره فى ذاته مبررا كافيا لاستعمال العنف ؛ ولعل اتجاهه هذا فى نقد النظرية الماركسية أثر من آثار التدريجية الغابية التى كان يؤمن بها من قبل. كما اعترض لاسكى على المادية التاريخية لنزعتها « العقلية » المغالى فيها ولتجاهلها أن هناك عوامل أخرى لها فى توجيه النشاط الإنسانى أثر يفوق أثر العوامل الاقتصادية، بيد أنه يتفق مع الماركسية فى أن النظام الاقتصادى السائد فى مجتمع ما هو العامل الرئيسى فى تحديد صورة الحكم فيه وأن الفئة التى لابد أن تسيطر فى ظل الرأسمالية ، بناء على ذلك ، هى الفئة التى تتحكم فى تكييف علاقات الإنتاج ومن ثم تستطيع أن تحصل على قدر من القوة السياسية يكفى لتوجيه سياسة المجتمع كله .

وجاءت المرحلة الثالثة فى التطور الفكرى عند لاسكى بعد قيام الحرب العالمية الثانية وتعرض انجلترا لهزيمة تقضى على أسس مدنيتها وتقاليدها السياسية فبدأ يدافع عن هذه التقاليد ويشيد بالروح الديموقراطية المتأصلة فى الشعب الإنجليزى ويوجه إلى الفاشية هجوماً لا هوادة فيه ، كما يبدو فى كتابه «تأملات فى ثورة العصر» الذى نحن بصدده؛ كما كان لاعتداء روسيا الغاشم على فنلندا فى أوائل الحرب رد فعل سيىء عند لاسكى ظهر صداه فى كتابه فى شدة نقده لحكام روسيا كما سيجىء فى حينه .

والكتاب نفسه ، الذى يقول لاسكى إنه بدأه فى الشهر الثانى من الحرب العالمية الثانية عند ما بدأ البرلمان البريطانى يناقش تقرير « بفريدج » عن الخدمات الاجتماعية، وانتهى منه فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، ظهر فى أوائل سنة ١٩٤٣. وهو يدور حول رأى لمؤلفه عن المرحلة التى تمر بها المدنية الغربيـة فى الوقت الحاضر نتيجة لواقع اقتصادى

أدى بصورة حتمية إلى أن أصبحت علاقات الإنتاج الحاضرة لا تسمح بأية صورة من الصور بالإنتاج التوسعى فى ظل الرأسمالية ، حيث إن الرغبة فى الكسب ، وهى الحافز الرئيسى فى ظل نظام الملكية الخاصة ، لابد أن تتحكم فى كمية الإنتاج ونوعه دون وزن لحاجات المجتمع فى مجموعه . ومن ثم لابد من تغيير هـذه العلاقات التى تتضمن فى جوهرها تمتع فئة قليلة بميزات تمنحها قوة اقتصادية، وبالتالى قوة سياسية، لا تتفق مطلقا مع نسبتها العددية فى المجتمع. ولما كانت هذه الفئة المتميزة غير مستعدة لأن تتنازل عن امتيازاتها فإنها تصم أذنيها عن صوت العقل والمنطق والواقع وتلجأ إلى جميع الوسائل للمحافظة على الوضع القائم فيما يتعلق بالمصدر الأساسى لهذه الامتيازات وهى الملكية الخاصة فى وسائل الإنتاج وما يتبعها من سيطرة على الائتمان . وهكذا فإن التغيير المنشود لابد أن يأخذ صورة الثورة التى قد تتسم بالعنف وتكون صراعا داميا ، كما حدث فى روسيا، أو قد تتم بوسائل سلمية كما تنبأ ماركس بما سيقع فى انجلترا .

ويصف لنا لاسكى هذه المرحلة من التغيير فى الفصل الأول من كتابه تحت عنوان « نبذة عن روح العصر » بأنها تغيير ثورى لا يقل عمقا عن أى تغيير آخر فى تاريخ الجنس البشرى الحديث ولا يقل فى جوهره ومغزاه عن التغيير الذى شهد سقوط الأمبراطورية الرومانية أو مولد المجتمع الرأسمالى وحركة الإصلاح الدينى . وهذا التغيير حتمى تكمن حتميته وطبيعته فى كل ما يتكوّن منه طابع مجتمعنا . ثم يستعرض لاسكى بعد ذلك الآراء المختلفة والأسباب التى سيقت فى تعليل هذا الوضع ، من سياسية واجتماعية ونقص فى نظم التربية وانكماش فى سيطرة القانون ، ويستبعد أن يكون أيًّا منها وحده هو العلة ، ولكنها جميعاً أدت مشتركة إلى قيامه . بيد أن من بين هذه الآراء رأياً يعزو المحنة التى يمر بهـا العالم والسبب فى ضرورة التغيير إلى زيادة تدخل الدولة فى مختلف قطاعات النشاط القومى ، وخاصة فى القطاع الاقتصادى ، ويرى فى سياسة عدم التـدخل « Laissey faire » علاجاً للموقف وأساسا صالحا

لمجتمع يتطور تبعاً لمقتضيات حاجاته وظروفه ؛ ويهاجم لاسكى هـــذا الرأى بشدة فى كتابه. ولا غرو فهو اشتراكى عتيد يطالب بزيادة تدخل الدولة لصالح الطبقة العاملة؛ وهو يقول بصراحة فى هذا الصدد إن الدولة ليست عاملا محايدا لخدمة المجتمع كله ، بل هى سلاح يستعمل فى خدمة الطبقة التى تجعل سيطرتها على وسائل الإنتاج فى وضع يمكّنها من استغلال إمكانيات الدولة لخدمة مصالحها الخاصة .

ثم يخصص الجزء الأكبر من بقية الفصل الأول لشرح سمات العصر الذى نعيش فيه من انتشار للخوف والقلق وعدم الطمأنينة مما يقضى على كل أمل فى التفاهم بين الفئات المختلفة فى المجتمع . وينتهى إلى أن البشر يواجهون الحاجة إلى تغيير جذرى فى روح الحكم كلها ، وإن هذا التغيير إما أن يحدث بتعاون من جانب أولئك الذين يحكمون الآن ، أو تؤدى الوقائع الموضوعية حتما إلى تغييز عنيف من أسس المجتمع الذى يحكمونه . وهو يستنكر الرأى القائل بأن نبذ الديموقراطية بوصفها إطارا للدولة يحل أى مشكلة من المشاكل التى يتعرض لها حاليا الجنس البشرى ، بل إن ذلك ، فيما يرى يزيد هذه المشاكل حدة حيث إن نبذ الديمقراطية يؤدى إلى إنكار المناقشة الحرة ، وهذا يؤدى بدوره إلى القضاء على الروح التى يتطلبها الكشف العلمى الذى يعد شرطا لا بد منه لبقاء أى مجتمع حديث .

ويناقش لاسكى فى الفصل الثانى من كتابه الثورة الروسية التى يقول عنها أنها تمثل فى علاقاتها التاريخية بالقرن العشرين نفس وضع الثورة الفرنسية بالنسبة للقرن التاسع عشر . وهو يذهب إلى أن العالم يمر الآن بفترة من رد الفعل لا يديولوجية الثورة الروسية مما يجعل قدرتنا على الحكم عليها دون تحيز تشوبها العواطف والانفعالات التى أثارتها هذه الثورة . فالناس حيالها فريقان ، فريق يرى مزاياها من الضخامة بحيث لا يستطيعون حتى مجرد التفكير فى الثمن الذى اقتضته ، وفريق هاله الثمن البشع الذى دفعته البشرية فى سبيل تحقيق هذه الثورة فلم يعد يقبل أية مناقشة فى مزاياها. ويتهم لاسكى الفريقين بالتطرف والغباء. فالفريقان ينظران إلى الثورة الروسية

فى ذاتها بوصفها حدثا قام به الروس وحدهم ونسى الناس أن كل حركة الأفكار التى نسميها التاريخ «الحديث» ساهمت فى وقوعها ، إذ ما كانت هذه الثورة لتتم ، فى نظره لولا الثورة العلمية التى قامت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ولولا أيضا الثورة الصناعية التى حدثت فى القرن التاسع عشر ، كما أن جميع الأفكار والمثل التى أتى بها مفكرون من أمثال هوبز وروسو وهيجل والاشتراكيون المختلفون من برودون إلى ماركس ساهمت فى تهيئة الجو لوقوعها بالصورة التى وقعت بها . ويقول لاسكى إن نجاح الشيوعيين فى الاستيلاء على السلطة واحتفاظهم بها يرجع إلى أسباب أهمها إدراكهم وفهمهم العميق لحاجات الناس الذين تحت سيطرتهم والعمل الحاسم على إجابة الرغبات الحقيقية لهؤلاء الناس ؛ وكذلك التدخل الأجنبى الذى استغله زعماء الشيوعية إلى أقصى حد فى إثارة المشاعر الحماسية لدى مواطنيهم وتكتيلهم للعمل السريع فى بناء نظامهم ، رغم أن الرصيد الكبير من الشعور الطيب نحو الثورة الشيوعية بين الطبقات العاملة فى مختلف أنحاء العالم جعل هذا التدخل أضعف من أن يقضى حقيقة على النظام الجديد .

ورغم إعجاب لاسكى الصريح بما حققته الثورة الروسية، وخاصة تحت زعامة لينين ، والتماسه المعاذير لشتى نقائضها ، ما يعترف به منها ، فإنه عندما يتعرض لغزو ستالين لفنلندا يتحول إلى هجوم شديد على زعماء روسيا السوفيتية ناعتا الاعتداء السوفيتى بأنه مغامرة تتسم فى كل تفاصيلها بالطابع العدوانى الفاشى الذى ظل هؤلاء الزعماء ينددون به سنين طويلة . وهو لا يقتصر فى نقده لحكام روسيا على هذه المناسبة وحدها بل أنه يتهمهم أيضا بأنهم اعتمدوا أكثر مما ينبغى فى حكمهم ومحافظتهم على سلطتهم على أجهزة البوليس السرى حتى أصبحت هذه الأجهزة دولة داخل الدولة ، ولو أنه يلتمس لهم فى ذلك بعض العذر من الظروف المحيطة بهم ومن كونهم عاشوا عيشة المتآمرين المشردين ، فى صراع دائم مع هذه الأجهزة نفسها عندما كانت تحت سيطرة حكام روسيا السابقين مما جعلهم يجنحون إلى إقامة حكم

دكتاتورى مطلق عند ما استولوا على السلطة والقضاء على كل مظهر من مظاهر الديموقراطية .

ويقول لاسكى فى هذا الصدد إن ديكتاتورية البروليتاريا التى نادى بها ماركس تحولت عند التطبيق العملى إلى دكتاتورية الحزب الشيوعى الذى يسيطر عليه حفنة من الزعماء أو ، فى معظم الأحيان ، فرد واحد . وهنا يصف المؤلف ديكتاتورية ستالين فينعتها بأبشع ما يوصف به حكم من مصادرة للحريات وأحكام بالإعدام بالجملة دون محاكمة ونفى وتشريد لكل مخالف فى الرأى وتزوير فى الانتخابات ورقابة صارمة على كل ما يكتب أو يقال وإثارة الأبناء ضد الآباء وانتشار الخوف بصورة لم يسبق لها مثيل . وهو يقول إنه لايستطيع أن يجد مبررا يستسيغه العقل لمثل هذا الاضطهاد الفظيع أو دفاعاً عنه ، اللهم إلا على أساس أن حكام روسيا الشيوعية لا يخطئون ، وهو ما لا يسلم به عاقل .

ورغم ماعرف عن لاسكى من ميول شيوعية فإن هذا الجزء من كتابه يعد عريضة اتهام قاسية من أقوى ما كتب فى هـذا الصدد حتى بدا أشد أعداء النظام الشيوعى هجوما عليه ، ولعل لاسكى لم يهاجم وضعا أو نظاما بهذه الشدة إلا عند ما يتعرض للحديث عن الفاشية التى اشتهر بعدائه الشديد لها .

ويسوقنا ذلك إلى الحديث عن الفصل الثالث من الـكتاب الذى خصصه المؤلف للفاشية تحت عنوان « معنى الفاشية » . ويعتبر لاسكى الفاشية العدو الحقيقى للجنس البشرى فى العصر الحاضر، وأن هزيمتها أصبحت ضرورة تاريخية بالنسبة للطبقة العاملة لأنها تمثل أبشع وسيلة لجأت إليها الطبقات المتميزة لخنق الديموقراطية السياسية التى أصبح من الواضح أنها ستؤدى حتما، مع ما يترتب عليها من اتساع فى القاعدة العددية للقوة السياسية ، إلى القضاء على جوهر النظام الرأسمالى وهو سيطرة فئة قليلة تملك وسائل الإنتاج على مصائر المجتمع كله .

ويفسر ذلك بأن المستفيدين من الأوضاع القائمة فى ظل النظام الرأسمالى لا يقفون

عند حد فى دفاعهم عما يعتقدون أنه مصلحتهم الحقيقية ، بل وكيانهم نفسه ، مستعملين فى ذلك كل الأسلحة بما فيها التعاون مع بعض المغامرين الذين لا يبغون سوى الحصول على المكاسب لأنفسهم عن طريق الاستيلاء على القوة فى المجتمع ، ومن هنا تنبثق الفاشية وتترعرع ثم يشتد ساعدها وتنجح فى الحصول على القوة التى تبغيها . ويطلق لاسكى على هذه المحاولة ، وعلى محاولات أخرى تلجأ إليها الرأسمالية فى محاولة إيقاف التغيير الحتمى المنشود ، اسم الثورة المضادة . فالفاشية فى نظره صورة من صور الثورة المضادة التى تهدف بها الطبقة الرأسمالية إلى أقلمة المجتمع الرأسمالى ـ مع الاحتفاظ بجوهره ـ لظروف الأساليب الفنية الحديثة والسوق العالمى وتقسيم العمل . فهى رأسمالية نبذت أصولها التحررية التقليدية بعد أن تأكدت بالتجربة من اتجاه الأحداث أن الفكرة التحررية ، سواء فى المجال الاقتصادى أو السياسى أو الاجتماعى، لابد أن تؤدى بطبيعتها إلى القضاء على الفكرة الرأسمالية .

ولعل لاسكى لم يتعرض للفاشية وأصولها وطبيعتها ونتائجها فى مؤلف من مؤلفاته بالتفصيل والإحاطة التى عالج بها الموضوع فى كتابه هذا . وهو يخلص من بحثه إلى أن الفاشية نظام مدمر بطبيعته ، فزعماؤه مضطرون إلى القضاء على جميع المراكز التى يمكن أن تكون مصدر خطر على خططهم أو تعترض سبيل تفردهم بالسلطة فى المجتمع. فلا يقتصر الأمر فى ذلك على الطبقة العاملة وحدها، التى يعمل زعماء الفاشية على إثارة مشاعرها الوطنية واستمالتها بمختلف الوسائل والوعود حتى يضموها إلى صفهم ويلهوها عن المطالبة بمصالحها الحقيقية ثم لا يلبثوا أن يسيطروا عليها تماما ويستغلوها فى صراعهم ضد القوى الأخرى داخل المجتمع وخارجه ؛ ولا على فئة المفكرين التى يحاول النظام الفاشى أن يخضعها أيضا لمقتضيات شمولية حتى ولو أدى الأمر إلى قتل البحث العلمى الحر الذى قد لا تتفق نتائجه مع ادعاءاته ، بل إن طبقة الرأسماليين نفسها ـ التى أتت بهذا النظام إلى الحكم ليساعدها فى كفاحها ضد الطبقات العاملة ـ سرعان

ما يأتى دورها وينشب فيها النظام مخالبه حيث إنه بطبيعته يقوم على التوسع العدوانى الذى لابد أن يؤدى إلى الحرب ، أو إلى حالة مستمرة شبيهة بالحرب ، مما يتطلب تدخلا بل وإشرافا كاملا من أجهزة الدولة على جميع مجالات النشاط الاقتصادى بصورة تنقل القوة الاقتصادية ، والسياسية بطبيعة الحال، إلى جهاز بيروقراطى يخضع للإشراف المباشر لزعماء الحزب . وهكذا فالفاشية فى نظر لاسكى العدو الأول الذى ينبغى أن تتضافر جميع الجهود فى القضاء عليه وعلى الأسباب التى أدت إلى قيامه . ولذلك نجده فى هذا الكتاب يدافع عن اشتراك حزب العمال البريطانى فى وزارة تشرشل الائتلافية إبان الحرب ، مع ما فى ذلك من تضحية ببعض المبادئ الرئيسية للحزب، على أساس أن هتلر وما يمثله هتلر هما العقبة الأساسية فى إتمام التغيير الثورى الذى يدعو إليه ويعتبره ضرورة حتمية يفرضها الواقع التاريخى والتطور الحادث ، أو الذى لابد أن يحدث ، فى علاقات الإنتاج .

ويخصص لاسكى بعد ذلك الفصول الثلاثة التالية من كتابه للحديث عن الديموقراطية والظروف الداخلية والخارجية التى يتطلبها بقاؤها وحسن أدائها لوظيفتها. ويجدر بنا هنا ، قبل الكلام عن مفهوم لاسكى عن الديموقراطية وظروفها ، أن نشير إلى أنه كان قبل الحرب ، خاصة بين سنة ١٩٣٣ وسنة ١٩٣٩ ، قد دأب على مهاجمة الديموقراطية الإنجليزية بوصفها قناعا تختفى وراءه سيطرة المصالح الرأسمالية ؛ ولكننا سنجده فى هذا الكتاب ، الذى كتبه فى السنين الأولى للحرب وبعد أن أصبحت انجلترا مهددة فى كيانها نفسه ، يدافع بشدة عن القيم الديموقراطية التى تشبعت بها روح الشعب الإنجليزى ويعتبر الدفاع عن هذه القيم واجباً يستحق ، كما ذكرنا ، تضحية من جانب العمال ببعض مبادئهم الأساسية .

ومع ذلك فإن لاسكى لا يفوته أن يذكرنا فى كتابه هذا بأن نظم الديموقراطية الرأسمالية لا تكفل إلا حرية سلبية ، وأن وظيفتها الأساسية هى حماية حقوق فئة

واحدة من الفئات التى يتكوّن منها المجتمع وهى الفئة التى تهيئ لهـا سيطرتها الاقتصادية أسباب التحكم فى القوة السياسية .

ويرجع لاسكى أسباب إخفاق الديموقراطية ، فى نظره ، إلى عاملين أساسيين . أولهما إصرار بعض الفئات التى تتمتع بامتيازات معينة على تجميد الديموقراطية السياسية عند النقطة التى لاتهدد فيها الأسس الاقتصادية للمجتمع القائم، ولما كان هذا التجميد يتنافى مع ما تتطلبه المحافظة على الديموقراطية نفسها من قدرة الغالبية العددية فى المجتمع على إحداث أى تغيير ، مهما كان جذريا ، بوسائل دستورية سلمية فإن إصرار هذه الفئات على تجميد الديموقراطية السياسية عند نقطة معينة هو فى الواقع قضاء عليها . والعامل الثانى الذى يعزو إليه لاسكى إخفاق الديموقراطية ، وهو منبثق من الأول ، أن اليسار بدأ يندفع فى اعتقاده بأن إيمان الرأسماليين بالأساليب الديموقراطية سينهار بمجرد أن تتعرض مصالحه للخطر ، ومن ثم سيلجأ إلى وسائل فيها القضاء على الديموقراطية الحقة دفاعاً عن هذه المصالح . وقد نجم عن ذلك جو من الشك فى الديموقراطية وفى قدرتها على تحقيق وظيفتها بحيث أصبح الموقف مهيأ بشكل واضح للثورة من ناحية وللثورة المضادة من ناحية أخرى . ومن ثم قامت أصوات تتنكر للديموقراطية باعتبارها لا تؤدى إلى شىء سوى تهيئة المسرح للصراع بين الأغنياء والفقراء . بيد أن لاسكى يخالف هؤلاء جميعا فى الرأى ويقول إن العيب فى الواقع ليس نقصا فى الديموقراطية السياسية نفسها ولـكن فى أنها غير مصحوبة بديموقراطية اقتصادية موازية لها بحيث لا يختل توازن المجتمع وأن ذلك ناجم عن عدم إدراك لمفهوم الديموقراطية على حقيقته وعن ظروف الواقع التاريخى الذى تطبق فيه . فالمجتمع الديموقراطى فى نظره هو نتاج العلاقات الروحية بين أعضائه بقدر ما هو نتاج صورة الحـكم فيه ، وأن الاثنين ـ العلاقات الروحية بين أفراد المجتمع وصورة الحـكم فيه ـ متأثران إلى أبعد حد بالأوضاع الاقتصادية القائمة ؛ ومن ثم فإن الأمر يتطلب وحدة فى الأهداف العظمى لدى جميع قطاعات المجتمع كما يتطلب أن تـكون مسئولية الحـكام

مسئولية حقيقية خاضعة للرقابة المستمرة من أفراد المجتمع دون حاجة إلى الالتجاء للقوة. ويقول لاسكى إن السبيل إلى ذلك لا يتأتى إلا بواسطة نظام يقوم على حرية كاملة ، غير متأثرة بالأوضاع الاقتصادية ، فى اختيار الحكام وتغييرهم بطريقة دستورية منظمة.

وعند ما ينتقل لاسكى إلى الكلام عن الظروف الدولية التى لابد من توافرها حتى تؤدى الديموقراطية مهمتها يبدأ بأن يذكرنا بأن الانتصار فى الحرب يعنى هزيمة هتلر ولكنه لا يعنى هزيمة الظروف التى جعلت وجود هتلر ممكنا . ومن ثم كان لابد من تنظيم شامل على الصعيد الدولى بحيث تقوم الدول بمجهود موحد لتحرير قوى الإنتاج فى العالم؛ بيد أنه يؤكد أن ذلك لا يمكن أن يتم بصورة حقيقية وحاسمة وفعالة إلا إذا عدلنا علاقات الإنتاج داخل كل دولة تعديلا جذريا .

فتعديل الأوضاع الاقتصادية فى نظره هو العامل الأساسى فى تهيئة الظروف الداخلية والخارجية اللازمة للديموقراطية الحقة ، ويقول إن فشل مؤتمرات نزع السلاح العديدة التى عقدت بعد الحرب الأولى دليل واضح على أن الرأسمالية فى مرحلتها الامبريالية لا يمكن أن تستغنى عن الحرب كوسيلة من وسائل التعبير عن نفسها !!

ويشير لاسكى إلى أن هذا التنظيم الشامل فى المجال الدولى يتطلب إنشاء هيئة تضم جميع الأمم ، المنتصرة فى الحرب والمهزومة على السواء ، على أن يتجنب بعد الحرب مأساة فرسايل ومعاملة الشعوب المهزومة كما لو كانت كلها عصابات من المجرمين . وينبغى أن تكرس هذه الهيئة جزءا كبيرا من إمكانياتها وجهودها لتحقيق هدفين أساسين ؛ أولهما إدخال المدنية الحديثة فى المناطق المتخلفة من العالم والثانى تصفية الاستعمار تماما بمظهريه السياسى والاقتصادى معا .

فإذا تم ذلك وتوطدت دعائم الهيئة الدولية زالت من العالم إلى حد كبير تلك الظروف التى أثارت الحرب عامدة لصالح الثورة المضادة ، وعندئذ سيظهر حتما أن الرأسمالية الفردية التى تمخض عنها الاقتصاد التقليدى غير ذات موضوع .

ويخصص المؤلف الفصل الأخير من كتابه للديموقراطية فى ظل التخطيط باعتبار أن هـذا الموضوع هو مشكلة الساعة . فمن رأيه أن الأمر الذى لا شك فيه، أننا عند نهاية الحرب سنكون قد انتقلنا إلى عهد المجتمع الخاضع للتخطيط الشامل ، وأن ذلك يقتضينا استعدادا خاصا وتحديداً دقيقا لأهدافنا من التخطيط لأن النازية أثبتت أن التخطيط يمكن أن يوجه فى خدمة مصلحة فئة قليلة ، خاصة وأن الأساليب الفنية الحديثـة فى التسليح والحكم تجعل فى وسع هـذه الفئة أن تسيطر تماما على الكثرة . وهو يذكرنا بأن التخطيط الشامل للمجتمع قد يقوم بسهولة على التضحية بحرية الفرد .

ويحاول لاسكى بعد ذلك أن يحدد المجالات الرئيسية للتخطيط بأنها الميادين التى يجب أن تخضع للسيطرة المباشرة للدولة، وهى الائتمان والأرض والتصدير والاستيراد ووسائل النقل والوقود ومصادر القوى . وينفى لاسكى ما يقوله خصوم التخطيط من أنه يتعارض بطبيعته مع الحرية ويدمر شخصية الفرد ؛ ويقول إن أصحاب هذا الرأى ينسون أن جوهر الحرية نفسه فى حاجة إلى إعادة تحديد كلما ظهرت مجموعة جديدة من الظروف التاريخية .

كما يشير إلى بعض الاعتراضات الأخرى التى تساق ضد تدخل الدولة عن طريق التخطيط وإشرافها على المشروعات الاقتصادية الكبرى مما يؤدى إلى سيطرة حفنة من البيروقراطيين الذين قـد يستغلون وضعهم للحصول على امتيازات على حساب المجتمع، وكأننا استبدلنا سيطرة رأس المـال بسيطرة البيروقراطية ، بالإضافة إلى أن البيروقراطى ، الذى يتصرف فى رأس مال لا يملكه سينقصه الحافز الرئيسى لإتقان عمله ويقتل روح الابتكار لديه . ويحاول لاسكى أن يفند كلا من هذه الاعتراضات على أساس المقارنة بما حدث فعلا فى التجربة الاشتراكية فى روسيا . ورغم أنه يهزأ بهذه المخاوف باعتبارها مجرد دعاية من جانب الطبقات التى تتمتع فى الوقت الحاضر بامتيازات ليست من حقها ، إلا أنه يعترف بالحاجة إلى ضمانات ضـد خطر أن يفقد

المجتمع فى ظل التخطيط الشامل ، عاداته الديموقراطية ويقع فريسة لطمع البيروقراطين فى السلطة . ولذلك نراه يطالب باللامركزية الكاملة فى الحكم ويذهب إلى أننا إذا لم ندرك أنها سر الحرية فسندفع الثمن غاليا من حريتنا وأمننا .

ويختم المؤلف كتابه بأن العالم غامر مرتين خلال هذا القرن بأرواح الملايين من شبابه فى سبيل مثل عليا جميلة وأملا فى تغيير الأوضاع التى تئن البشرية تحت وطأتها ولكن فى المرة الأولى أخفق تماما فى تحقيق هذه الآمال وراحت أرواح الملايين هباء فلعلنا لا نفعل نفس الشىء مرة أخرى ونتعظ بالتجربة الماضية .

وأخيراً أود أن أضيف أنه من الواضح أن لاسكى وإن كان قد نجح فى التخلص تماما من تدريجيته الغابية بتأثير الماركسية ، إلا أنه لم يستطع أن يوائم بين إيمانه بالحرية وبشخصية الفرد وبين الماركسية التى اعتنقها وظل يدافع عنها طوال الفترة الأخيرة من حياته ؛ وتبدو جميع المحاولات التى بذلها فى التوفيق بين هذين الأمرين مفتعلة وغير ذات جدوى ؛ ولعلهما ـ أى الحرية والمحافظة على شخصية الفرد من ناحية والماركسية من ناحية أخرى ـ أمران لا يتفقان .

عبد الكريم أحمد